كلمة تأبينيّة يلقيها البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القدّيس يوسف في بيروت، في جنازة الفقيد الرئيس الفخريّ للجامعة سليم عبو اليسوعيّ (1928-2018)، يوم الأربعاء الواقع فيه 26 كانون الأوّل (ديسمبر) 2018، في الساعة الثالثة من بعد الظهر، في كنيسة القدّيس يوسف للآباء اليسوعيّين في بيروت.

أصحاب المعالي والسعادة،

حضرة الأب االرئيس الإقليميّ للرهبنة اليسوعيّة في الشرق الأدنى والمغرب العربيّ،

حضرة الأب رئيس الرهبنة اليسوعيّة،

أيّها الأعزّاء أهل الأب سليم وأصدقائه،

بعض الأشخاص يرحلون ويبدو رحيلهم كأنّه ولادة جديدة أو دعوة إلى عودة كلمة كانت كالحدّ الفاصل وكالموج العاتي المتكسّر على الصخر، كما جاء في تعليقات بعض المفكّرين. إنّ رحيل رفيقنا اليسوعيّ سليم عبو، رئيس الجامعة الفخريّ والمربّي والمقاوم الثقافيّ ذات الإنشغالات المتعدّدة المكافحة للعبوديّة، وعالم الأنتروبولوجيا والفيلسوف المؤلّف، والمربّي الذي أدّى رسالته بين أيتام بارانا Paraná على حدود الأرجنتين، هذا الرحيل يبدو وكأنّه استمراريّة حضور لا بل عودة لكلمة تُقال باستمرار بحريّة لأنّها تُقال بضمير وقناعة. في هذا السياق، لم يكن من الصعب جدًّا إختيار نصّ من الإنجيل بحسب القدّيس يوحنّا " إنّ حبَّة الحنطة، إنْ لَمْ تَقَعْ في الأَرض"، فهذا النصّ يرافق عزيزنا سليم عبو إلى بيت الآب. إنّها كلمات تذكّرنا بسرّ التجسّد والميلاد وكذلك بسرّ الخلاص. إنّه يركّز أيضًا على حياة وُهِبَت ودُفِنَت في الأرض لتؤتي ثمارها في مجالات تتجاذبها التناقضات والمفارقات في بعض الأحيان. هذا ليس بالأمر الغريب على اليسوعيّين ولا سيّما يسوعيّ من طينة سليم عبو. لكنّ رئيسنا الفخريّ كان دائمًا يأخذ بعين الاعتبار ما هو جوهريّ في فكره. حتّى أنّه كان ينظر باهتمام بالغ إلى يسوع في نصّ الإنجيل على أنّه الحبّة التي ستموت لتؤتي ثمار القيامة، بعد دخوله المسيحيانيّ إلى أورشليم وقبل بضعة أيّام من تسليمه للموت على الصليب. كان يرى أنّ مقارنة حبّة الحنطة التي تقع في الأرض تساعد على فهم مفارقة الحياة : الحياة التي توهَب هي موت الذات من أجل أن تؤتي ثمارها، والاحتفاظ بالحياة لأنفسنا يعني البقاء في الوحدة، وفي أرض قاحلة. الحياة الأبديّة مرادفة للملكوت. السبيل الوحيد للدخول فيه هو الموت مثل حبّة الحنطة التي تقع في الأرض. كان سليم عبو قد اختار من دون أن يعود إلى الوراء أكثر من اللازم.

ولد في بيروت في العام 1928 وقام بدراسته في المدرسة الثانويّة للجامعة مع صديقه ميشال إدّه، واختار دخول الرهبنة في العام 1946 فالتحق بدير الإبتداء وتابع دراسته في "ليون" Lyon إلى جانب يسوعيّين بارزين ومن ثمّ إلتحق بالجامعات الفرنسيّة حيث تعلّم كيف يدفن حبّة حنطة حياته من أجل أن يموت عن نفسه، بحريّة كبيرة، على صورة معلّمه، وبالتالي أن يطلق عند الآخرين الهبات والقيم الروحيّة والإنسانيّة وخاصّة هبة المحبّة حتّى النهاية. على صورة قداسة البابا فرنسيس، كان الأب عبو يهتمّ بالإنسان على أنّه مكان تجسيد الإله بامتياز.

من منّا لايتذكّر القداديس التي كان يحتفل بها ها هنا في أمسيات الآحاد ولسنوات، حتّى بعد تعرّضه لأوّل حادثة صحيّة، ككاهن على رأس رعيّته وأبنائها، يوزّع لهم خبز الحياة، وينقل إليهم تعليقاته على كلمة

الإنجيل ويعلّمهم أنّ كلّ مقاومة ثقافيّة وروحيّة تستمدّ أصولها ومصدرها من المشاركة الإفخارستيّة، من تلك المحبّة المصلوبة من أجل الجميع !

في وقت مبكر، توجّه نحو أمريكا اللاتينيّة فأصدر كتابه الشهير حول اللّبنانيّين، "هؤلاء المهاجرين إلى أمريكا اللاتينيّة". ولكنّه أصبح إرساليًا باحثًا ومربّيًا يعمل، بدعمٍ من وزيرة الثقافة الأرجنتينيّة السابقة ماريزا ميكوليس Marisa Micolis، إلى جانب الشباب الهنود الغواراني guaranis، ورثة الجمهوريّة الإشتراكيّة اليسوعيّة في القرن السابع عشر التي دمّرها ممثّلو المصالح السياسيّة والأنانيّة في ذلك الوقت. كان يذهب بانتظام لمساعدتهم على الاندماج في بيئتهم من دون أن يفقدوا هويّتهم وتراثهم الثقافيّين. تُظهر منشوراته المتعدّدة مسارًا متضامنًا جدًّا مع هؤلاء السكّان.

ألم تسقط حبّة الحنطة في أرض أوسع بكثير، ألا وهي الأرض التي غُرس فيها حوار الثقافات، وبالطبع حوار الأديان، وكذلك حقوق الإنسان فكان سليم عبو يعمل فيها بجدّ لتحمل ثمار الكلمة الطيّبة. أتذكّر الإهتمام الذي كان يوليه لنشر أربع محاضرات رئيسيّة ألقاها في ال"كوليج دو فرانس" وهي "الثقافات وحقوق الإنسان" وترجمتها إلى اللّغة العربيّة لأنّ مبادئ تفكيره حول هذا الموضوع كانت قد نضجت. في هذا الكتاب وغيره من الكتب، كان يظهر على أنّه معلّم غرف من ينابيع ثقافة التنوير، حيث قام بتدريس أفكار الفيلسوفين كانط Kant وهيجيل Hegel اللامعة ليتمّ الإعتراف به كمرجع في هذا المجال. هذه النزعة الإنسانيّة نحو عصر التنوير جعلته ملتزمًا بمفهوم الشخص المستقلّ. كان هذا الإنخراط يتّخذ شكل كفاح من أجل "الكائن البشريّ" الذي كان بالنسبة إليه مواطنًا قبل كلّ شيء. فالإنسان كمواطن يجب أن يتمتّع بفرديّته وحقوقه الطبيعيّة المتأصّلة فيه بشكلٍ أفضل. ولكن نوعيّة المواطن ليست نموذجًا معياريًّا موحّدًا، لكن بمقابل ذلك، تعلن هذه النوعيّة عن التنوّع الذي لا ينضب والذي يميّزنا كأفراد وكمجموعات أو كجماعات ثقافيّة ودينيّة.

بالتالي، وبما أنّ الإنسان يبادر إنطلاقًا من قناعاته، قام سليم عبو، في مناسبات عديدة وحتّى آخر لحظة من حياته الناشطة بتعزيز نسيج وطنيّ مرهف، هو نسيج لبنان الذي غالبًا ما يتخبّط بعواصف متعدّدة. ليس هناك ما يفاجئ، لأنّ هذا الاهتمام كان يندرج ضمن تقليد جامعة القدّيس يوسف في بيروت التي لطالما كانت فخورة بموقفها الدؤوب في أن تكون مساحة أكاديميّة تعددّية تختلط فيها النُخب القادمة من مختلف الأسر الروحيّة اللّبنانيّة والتي تعمل بلا كلل، وعلى إثر كلّ رؤسائها وبروح الرهبنة اليسوعيّة، من أجل خلق شعور من المواطنة والوطنيّة لا مثيل له وخاصّ بها، يلتزم به كلّ اللّبنانيّين بتنوّعهم. كان حبّ الأب عبو للبنان شغفًا لا جدال فيه أيضًا، ولكنّه كان أيضًا وقبل كلّ شيء قناعة فكريّة راسخة لديه. أصبح هذا الشغف سببًا لنضال يمكننا أن نقرأه مرّة أخرى في خطبه المختلفة التي ألقاها في 19 آذار (مارس)، عيد شفيع الجامعة، وخاصّة تلك الخُطب التي تحمل عنوان "غضب الجامعة" و "مقاومة الجامعة".

إنّ وطنًا مثل لبنان هو تعدّدي من حيث التعريف به. في مثل هذا المفهوم "الشموليّ" يجب أن يُفهم تمسّكه بالتعدديّة الثقافيّة التي تميّز لبنان وكذلك ارتباطه بالثقافة الفرنسيّة التي تنتج عنها. لكن مساحة الوطن اللّبنانيّ هشّة وهي تستلزم إعادة بنائها باستمرار لأنّ التاريخ مأساويّ كما يتمّ التعريف به.

لهذا السبب، بنظر سليم عبو، الجامعة هي المكان حيث تتكوّن يوميًّا تلك الفرديّة الخاصّة بالمواطنة بامتياز. إنه المكان المرموق من أجل تعلّم المواطنة في تعدّدية أبعادها، كلّ أبعادها. كان يدرك أنّ الجامعة هي معبد للمعرفة ولهذا السبب كان من الضروريّ منحها أفضل الوسائل من أجل تنفيذ مهمّتها الأكاديميّة في تنشئة طلابها. عندما أصبح رئيسًا للجامعة من العام 1995 حتّى العام 2003 ، على الرغم منه بعض الشيء، وبعدما كان مديرًا لمعهد الآداب ومؤسّس كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة والآداب في جامعة القدّيس

يوسف في العام 1976، يكفي أن ننظر عن كثب لنشهد على عمله الهائل في خدمة التعزيز الأكاديميّ للأمّ المربّية. فقد كان هو من أدخل النظام الأوروبيّ لاحتساب الأرصدة الجامعيّة القابلة للتحويل في العام الأكاديميّ 2002-2003، واللّغة الإنجليزيّة كلغة ثالثة إلزاميّة، والخطّة الاستراتيجيّة 2002-2007، والإحتفال الذي لم يسبق له مثيل لمرور 125 عامًا من عمر الجامعة. لقد كان الشاغل الرئيسيّ للراحل الأب دوكروييه Ducruet ، وسلفه الأب شاموسي Chamussy، صديقه الكبير وخلفه، تزويد جامعة القدّيس يوسف بالأسباب الكافية لتستمرّ عبر الزمن وتكون في خدمة تنشئة الشباب اللّبنانيّ والشرق أوسطيّ وفقًا للكاريزما الإغناطيّة.

نحن لا ننسى صفحات خطابه حول مقاومة الجامعة حيث يطلب من الجامعات اللّبنانيّة، التاريخيّة والحاليّة، أن تفي بمهمّتها من أجل الإنسان وليس من أجل أيّ مشروع تجاريّ أو إيديولوجيّ أو طائفيّ يشوّه ما هو قيّم في لبنان، رأس المال البشريّ الوطنيّ، والمثقّف والكفوء، الذي تلقّى تنشئته في مدرسة القيم الروحيّة والإنسانيّة. هذا الاهتمام بالتعليم الجيّد، تشارك به مع العديد من أصدقائه مثل الراحل منير شمعون، وخاصّة مع شقيقته السيّدة ريموند التي كانت مربّية تتمتّع بالقيم ورافقت أجيالًا من اللّبنانيّات واللّبنانيّين.

كان لسليم عبو وعي تامّ بالعلاقة العضويّة بين الجامعة والسياسة بمعنى العيش معًا الذي قام به أولئك الذين يؤمنون بالتحالف بين الصالح العام والسياسيّ. وبهذه الروح، إلتزم شخصيًّا وألزم الجامعة بالإخلاص لتقليد جامعة القدّيس يوسف التي كانت ولا تزال عرّابة لبنان الكبير والجمهوريّة اللّبنانيّة.

في سياق ضرورة تأسيس هذا "العيش المشترك" على أسس متينة، يُعتبرآخر مشروع "جامعيّ" " قام به سليم عبو عبارة عن مختارات لم تنته بعد حول العيش المشترك اللّبنانيّ الذي كان قد وضعه مع صديقه وشريكه سمير فرنجيه فضلًا عن بعض الأكاديميّين الذين تمّ اختيارهم بعناية. تكمن فكرة المؤلّفين الأولى في توفير قصّة عن لبنان منذ القرن التاسع عشر تكون في متناول جيل الشباب، يعبّروا من خلالها عن تجذّر العيش المشترك العميق في بلدنا ويظهروا مخاطر "عدم توفّر العيش المشترك"، وفقًا لتعبير سمير فرنجيه، والتي تثيرها بعض الظروف. للأسف، المرض الذي أصاب عرّابَي المشروع حال دون إتمامه. ومع ذلك، فإنّ المشروع لم يمت على الرغم من رحيل كليهما بما انّ الجامعة هنا ولا تزال أمينة في التزامها الأصليّ بالأخوّة الفكريّة المنفتحة بين الأشخاص. لذلك تأخذ جامعة القدّيس يوسف على عاتقها استكمال تحقيق هذا المشروع المشترك بين الأب عبو وسمير فرنجية، تكريمًا لذكراهما بالتأكيد، ولكن أيضًا كشهادة للبنان الذي سنحتفل بالمئويّة الأولى لتأسيسه في العام المقبل.

من خلال تمرير هذه اللّحظات من حياة رفيقنا العزيز سليم المكثّفة، كيف لا نشكرك يا ربّ ! لأنّك، مثل "حبّة الحنطة"، متّ على الصليب، وجعلتَ من حياة سليم عبو حبّة قمحٍ مطحونة أعطت ثمارًا كثيرة جيّدة تبدو في الظاهر أرضيّة ولكنّها بالعمق ثمار روحيّة وتدوم للأجيال القادمة ! إنّ رحيله اليوم يبيّن لنا أنّ حياته كانت هبة مكرّسة للآخرين، للبعيدين كما للقريبين. إنّها لحياة قائمة على رجاء رؤيتك يا ربّ، أنت القائم من بين الأموات. مع القدّيس إغناطيوس، كان يردّد قائلاً : "يا إلهي، خذ وتقبّل حريّتي بكاملها، خذ ذاكرتي وفهمي، وكامل إرادتي". اليوم ينهي صلاته التي هي صلاتنا أيضًا ونحن نقول لك : "أعطيتني هذه الحياة، أيّها الربّ، وها أنا أعيدها إليك. آمين.